الجفاف

قصة بقلم أحمد سويد

بقدوم الشيخ لقمان اكتملت الحلقة تحت شجرة السنديان الدهرية التي تعود أهل القرية أن يفيئوا الى ظلالها عند كل أصيل من أصائل الصيف ، ليتطارحوا همومهم الحياتية ومشاكلهم الطارئة .

وكان الشيخ لقمان يعرف مكانه في الصدارة ، فتوجه اليه بعد أن ألقى التحية بصوت جهير ، ثم أردفها بالشهادة والحوقلة مهموستين ، وبطقطقات سبحته السوداء الطويلة .

وبنظرة خاطفة استعرض الحضور ، ثم برك على التراب وسجى عصاه الغليظة الى يمينه ، ولحكمة ما ، عاد فمددها الى يساره ، ثم تفقد كرشه المندلق بطرف عينه الحولاء وراح كالجميع ينصت الى لهاثه الذي كان يتصاعد عاليا فيرتج معه قفصه الصدري كله .

وسأله المختار بقلق صادق :

ـ تبدو يا مولانا الشيخ شديد التعب .

فانتفش مولانا ، وهز رأسه الضخم :

ـ الحقيقة يا مختار اني لم أجابه في حياتي كلها عفريتا عنيدا كهذا الذي جابهته اليوم . لقد تلبس اللعين أم نصار الدلهوني منذ أيام فاستدعوني عند الظهيرة لاجده يهم بخنقها ، فأمرته بأن يخرج منها حالا ولكنه أبى وعصى ، فاضطررت الى جلده حتى تمزق جلد المسكينة ولقد استطعت بعد ساعات طويلة من الصراع المضني أن أطرده شر طردة ، وها أنذا قادم لتوّي بعد ان تركت المرأة بخير والحمد لله .

وتصاعدت الدعوات حارة من كل صوب :

ـ أطال الله عمر مولانا الشيخ لقمان .

ثم ساد الصمت ملتوتا بفحيح الشيخ وعرقه المتصبب .

ومرت فترة اعتبرها العريف حمدان كافية لراحة الشيخ ، فانطلق يتابع حديثه الذي كان قد بدأه قبل القدوم الميمون :

ـ الخلاصة يا جماعة ان الحالة خطيرة . الجفاف قضى كليا على مزروعاتنا الشتوية ، فلم تدخل « كوايرنا » هذا الصيف ، حبة قمح ، وها أنتم ترون أن المواسم الصيفية عاطلة جدا . كروم العنب والتين يبست ... والزيتون غزته الدودة . وزاد في الطين بلة ، ان العين الوحيدة التي نشرب منها قد شحت لدرجة ان نساءنا أخذن يقتتلن كل يوم ويتجاذبن شعورهن من أجل شربة الماء ، وعلينا ان نجد حلا لكل هذه المشاكل .

قالت سعدية الحلبي تصديقا لكلام العريف المتقاعد :

ـ البارحة ، شجت بنت المختار رأس بنتي فتحية ، ومنعتها ان تملأ جرتها من العين ، فهل العين يا ترى ملك لبنت المختار ؟

وتظاهر المختار بانه لم يسمع ، وأدار أذنه اليمنى لقاسم المعاز الذي انبرى يشكو :

ـ الناطور يمنعني من الدخول بقطيعي الى الحرش لان الدولة سبق لها أن فرضت الحماية عليه . لقد فطست عندي اليوم ثلاث عنزات بسبب الجوع ، فهل يرضى الله بهذا ؟

وتململ محمود سعفان وهو طالب في مدارس المدينة ، يريد أن يتكلم ، ولكن قابلة القرية العجوز سبقته الى الكلام بصوت راجف متهدج

ـ أنا أم كل واحد منكم . أنا أدخل كل بيت من بيوتكم فأعرف دخائلها . هناك عائلات تنام هي وأطفالها بلا عشاء .

... وسكتت الحاجة أم حسين وهي تمسح بطرف مريولها بضع حبات من الدمع كانت تكرج بصمت على وجنتيها الضامرتين .

... وتنحنح الحاج أبو سليم الهاني :

ـ لقد مررت البارحة بوادي الطحلب ، وأحزنني يا اخوان ان النبع الذي تستقي منه مواشينا قد نضب كأنه انما غار في بطن الارض ولم تعد تسيل منه نقطة واحدة . وفكرت بالكارثة التي تنتظرنا اذا لم يتداركنا الله برحمته ولطفه

وبصورة عفوية اندفع علي الغوش الحطاب يروي للحضور ما شاهده يوم أمس فقال :

ـ كنت يوم أمس عائدا من المدينة مع حماري بعد أن بعت حمل الحطب ، وبوصولي الى أملاك النائب سليمان بك ، رأيت جمهرة من العمال ، يلتفون حول آلة غائصة في الارض الى مدى بعيد . وما هي الا لحظات حتى علت أصوات البهجة : « طلعت المي ، طلعت المي » . واقتربت فاذا بالماء يتدفق ، ويجري كالنهر ـ يا بارك الله ـ وعرفت من الشباب ان « الحكومة » أرسلت هذه الآلة للبك كيلا تظل أراضيه بورا . فشربت من الماء وسقيت حماري ، وشكرت الله على هذه النعمة.

... وتململ محمود سعفان ثانية ، يريد أن يتكلم ليرتاح من ذلك الفليان الذي يحسه في صدره ، ولكن جاره « ابو العز » سبقه ايضا هذه المرة :

ـ يا جماعة . لم يكفنا الجفاف وخسارة المواسم ، وخطر الجوع والعطش حتى سلط الله علينا البرغش . من منكم يستطيع ان ينام في الليل هو وأطفاله ؟ ثم هذه الحمى التي تنتشر في القرية ؟ انها لولا مولانا الشيخ لقمان لفتكت بنا وباطفالنا ، فهو يتولانا ببركته ، ويحجب عنا شرها بادعيته وشفاعته ، وراحتيه الطاهرتين .

ويمسد الشيخ لقمان لحيته باعتزاز ، فالقرية تعرف قيمتـــه وتحفظ له أياديه البيضاء عليها ، وتعترف بفضله على لسان هذا الشهم « أبو العز » ، ولكنه يتذكر أن من الحكمة ان يتظاهر بالتواضع ونكران الذات فيلتفت الى أبو العز :

ـ هذا من فضل الله يا بني ورحمته .

* * *

... ويسود الحلقة صمت ثقيل ملفوف بالكآبة لا يلبث ان يمزقه صوت الطالب محمود سعفان الذي كان يحاول جاهدا أن يسيطر عـلى انفعـاله :

ـ كلكم يا اخوان مواطنـــون تدفعون الضرائب للدولة وتطيعون قوانينها . هذا هو واجبكم تجاهها طبعا . ولكن ألا تتساءلون ما اذا كان على الدولة تجاهكم واجبات بالمقابل ؟ أنا أقول ان من واجباتهـا الاولية أن تحميكم من الآفات الزراعية والاوبئة ، وأن تســاعدكم في محنتكم .

... وأجفلت هذه اللفة الجديدة مولانا الشيخ لقمان ، وهزت بدن المختار ، فهما لم يتعودا سماع مثلها في القرية ، وان كان مـا يشابهها يتسرب اليها سرا في بعض الاحيان من احدى القرى المجاورة حيث ينتشر الملحدون والزنادقة ، الا أن أحدا من أبناء القرية لم يتجرأ يوما على نقل هذا الكفر واشاعته بين الناس .

والحقيقة ان عين الشيخ لقمان كانت قد أخذت تحمر ، فلقـد اشتم في كلام الطالب رائحة تخريب على الله ... ولكنه آثر أن يكظم غيظه ، وأن يتجنب المواجهة الحامية مع هذا الفتى الوقح ، فاكتفى بأن راح يردد بصوت هلوع :

ـ أستغفر الله العظيم ، أستغفر الله العظيم .

ولكن محمود سعفـــان لم يكترث لانذار الشيخ المبطن فاندفع يكمل :

ـ يا اخوان . في عنابر الدولة قمح كثير ، قليله يكفيكم ، وفي مستودعاتها أدوية فعالة ، فلو كان أمركم بعنيها لقضت بها على الدودة التي تنخر زيتونكم والآفات التي تهلك كرومكم وعلى البرغش الـذي يمص دماءكم ودماء أطفالكم ، ويحمل لكم المرض والحمى ، ولو كانت الدولة مهتمة بكم لاستخرجت لكم من بطن الارض الماء الذي ينقذكـم من الموت عطشا .

وتشابكت نظرات الحضور وفيها من بريق الاستحسان والاقتنـاع ما يشجع الفتى على الاستمرار ، الا ان الشيخ لقمان سرعان ما تلفت الى المختار يستعجله النجدة ، فرنا هذا الى الفتى ، وقال له بوقار ممثل السلطة وحزمه :

ـ كلامك يا بني تدخل في السياسة ، وهو عمل ممنوع يقع تحت طائلة القانون .

وأفرخ روع الشيخ لقمان بعد هذا الدعم العاجل الذي جاءه من المختار ، فأخذ عصاه عن يساره ومدها نحو محمود سعفان واتبعهـا بعينه الحولاء :

ـ العياذ بالله . ما هذا السم الذي يجرعونكم اياه في المدارس. ان الله ـ يا هذا ـ هو مقسم الارزاق . ألم تسمع قوله جل وعلا : « ورزقكم في السماء وما توعدون » ؟ وهو سبحانه وتعالى الذي يبتلينا بالمرض ، ويرسل علينـا الآفات : « قل لن يصيبكم الا ما كتب الله لكـم » .

ثم التفت الى الحضور وتابع :

ـ أنتم ، يا قوم ، المسؤولون عن كـل ما نزل بكم وما سوف ينزل ، اذ من منكم يصوم رمضان كله أو بعضـه ، من منكم يصلي الفروض الخمسة ، ويتصدق على الفقراء ؟ من منكم يخطر في باله أن يزور أولياء الله ذوي الكرامات المعروفـة ؟ من منكم يعرف نواقض الوضوء ؟ من منكم ينهي نساءه عن استشـارة الشيطان الرجيم بلبس القصير الفاضح من الثياب ؟ ان ما ينزل بكم هو عقاب من الله . ان الله يراقب اعمالكم ، ولا تخفاه من تصرفاتكم خافية ، فلا تلومن الا انفسكم .

... وتحفز محمود سعفان للرد على مولانا الشيخ لقمان ، الا ان سربا من طائرات العدو مر فوق القرية ، مخترقا جـدار الصوت ، ناشرا وراءه هزة من الرعب والذعر ترك اثرها الصاعق صفرة فاقعة على الوجوه ، بما فيها وجه الشيخ المفلطح الذي بدا كشمامة ناضجـة مبعوجة ، فاغتنم الفتى الفرصة وغمز الشيخ وهو يشير الى الطائرات التي كانت تتوارى وراء الجبال الشاهقة :

ـ وهذه يا مولانا الشيخ مما كتب علينا أيضا ؟ أم انها هنا لاننـا كفروج أبي العلاء ؟..

... وتعالت من الحضور دمدمة :

ـ وما حديث هذا الفروج يا محمود ؟

فقال محمود وعينه الخبيثة على الشيخ :

ـ لقد مرض أبو العلاء مرة فوصفوا له فروجا محمرا ياكـله ، فيساعده على استرداد العافية ، وعندما حملوه اليه مكبلا فوق بيدر من الارز الشهي المعصفر ، أشاح بوجهه عنه وغمغم : « مسكين أيهـا الفروج . لقد استضعفوك فوصفوك ، فهلا وصفوا لي بديلا عنك شبل الاسد ؟ » .

وحك الشيخ لقمان لحيته الغابة ، وصاح معترضا :

ـ لقد جاورني أبو العلاء هذا عشرة أيام خلال الصيف الماضـي يوم كنت في المستشفى . لقد كان سريره لصق سريري تماما ، وأنـا ادرى به منك . فهو لم يكن يرفض أكل الفروج عن فلسفة ، بل لانـه كان يشكو انقطاع الشهية وعسر الهضم .

... ودوت ضحكة الطالب محمود سعفان :

ـ ولكن أبا العلاء يا مولانا الشيخ العلامة ، شاعر فيلســـوف « أعطاك عمره » منذ عدة قرون !

... فاحمر وجه الشيخ ، حتى كادت تتفجر أوردته المحقونـة ، وبدا الضيق على وجه المختار ، وانفرطت الحلقـة في جو من اللغط الفوضوي والضحك المجلجل ... وفيما كان محمود سعفان يتوجه الى منزله ، كان كثير من الحضور يلحقونه واحدا اثر واحد .

بيروت — أحمد سويد

أطلب كتب دار الآداب
في
جمهورية اليمن الديموقراطية
من
مؤسسة ١٤ أكتوبر
للطباعة والنشر
ص. ب ٤٢٢٧
كريتر ـ عدن